الفصل السادس

فى الوفود على الخلفاء وأهل الكرم والوفاء

□ جَبلة بن الأيهم يفد على عمر ! :

قال أحمد بن عمر الكوفى : إن جبلة بن الأيهم[1] كتب إلى عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – يطلب إذنَه فى القدوم عليه مُسلماً ، فَسُرَّ عمر بذلك وكتب إليه أن يُقْدِمَ ويُسْلمَ وله مالنا وعليه ما علينا .

فخرج جبلة فى جمع كثير من سائر العرب ، فلما قرب من المدينة ألبس القوم حللاً من الذهب ، ومطارق مُوشّاة ، وجَلّل الخيل بجلاجل الأطلس ، ولبس جبلة تاجًا نفيسًا ولم يبق فى المدينة أحدٌ حتى خرج النساءُ والصبيان ، وفرح المسلمون بإسلامه وقدومه ، وكان يومًا مشهودًا ، فدخل المدينة وأسلم ، وأقام بالمدينة ، وتعلم شرائع الإسلام .

فلما كان أوان الموسمِ خرج عمر – رضى الله عنه – إلى الحج ، وخرج جبلة معه يريد مكة والوقوف بعرفة ، فبينما جبلة بن الأيهم يطوف بالبيت إذ وطىء على إزاره رجل من بنى فزارة فحَلّه ؛ فالتفت جبلة إلى الرجل فلطمه لطمة هشَمَ بها أنفَه ، فاستعدى الفزارى عليه عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – فأرسل عمر إلى جبلة فأحضره ، فحضر إليه فقال له : ما دعاك إلى ما صنعتَ بهذا الرجل الفزارى ؟! .

قال : لأنه وطىء على إزارى فحلّه ، ولولا حرمة هذا البيت لأطحت برأسه ، قال له عمر : أما أنت فقد أقررت بفَعْلَتِك فإما أن تُرضيَه وإما القصاص ، قال : أو تقتص له منى وهو سُوقَةٌ وأنا جبلة بن الأيهم ملك غسان ؟! .

قال له عمر – رضى الله عنه – : إنه قد جمعك وإياه الإسلام فلا فضلَ لك عليه فى القصاص!، قال جبلة : لقد رجوت أن أكون فى الإسلام أعزَّ

(١) آخر الملوك الغساسنة شارك الروم فى معركة دومة الجندل واليرموك أسلم فى أيام عمر بن الخطاب ثم ارتد وقصد القسطنطينية وفيها توفى .

منى فى الجاهلية ! قال له عمر : دع عنك ذلك . قال : إذن أتنصر !، فقال له عمر : إن تنصرت ضربت عنقك.قال : واجتمع قوم جبلة وبنو فزارة فكادت تكون فتنة ؛ فقال جبلة : أخرنى إلى غد ياأمير المؤمنين ، قال : لك ذلك ، فلما كان الليل خرج جبلة وأصحابه من مكة والمدينة ، فلم يزالوا حتى دخلوا القسطنطينية على « هرقل » فتنصروا جميعاً ، فأقطعه من الأراضى وأوقف عليه من الرباع ما أعرضتُ عن ذكره مخافة التطويل ، قال : وبعث عمر – رضى الله عنه – إلى « هرقل » يدعوه إلى الإسلام ، فأجابه إلى المصالحة على غير الإسلام ، فلما أراد أن يكتب لعمر جوابه قال للرسول : اذهب إلى جبلة بن الأيهم الذى أتانا من عندهم وتَنَصّر ، قال : فذهب إليه الرسول ، فإذا على رأسه من القهارمة[1] والحجاب والحفدة[2] ما لا يوصف .

فاستأذن عليه ودخل إليه ، فإذا هو على سرير من بلّور قوائمه من ذهب ، فلما رانى عرفنى وأدنانى وأجلسنى إلى جانبه وأخذ يسألنى عن المسلمين واحداً بعد واحد ورجلاً رجلاً فأقول له بخيرٍ تركتُهم ، قال : وكيف تركت عمر ؟!، قلت : بخير ، ثم نزلتُ عن السرير ، فلما نزلت قال لى : لم تأبى الكرامة التى[3] أكرمتك بها ؟! فقلت : إن رسول الله – ﷺ – نهى عن مثل ذلك[*]، قال : نعم – ﷺ –، ولكن ثق بنبيك ، واجلس على ما شئت ، قال الرسول : فلما سمعته يصلى على النبى – ﷺ – طمعت فى إسلامه وقلت له : ياجبلة هل لك فى الإسلام والرجوع إليه ؟!، قال : أبعد ما كان منى ؟! قلت : نعم !، قد فعل رجل قبلك من بنى فزارة أكثر مما فعلت ! ارتد عن الإسلام ، وضرب وجوه المسلمين بالسيف ثم عاد إلى الإسلام وقُبل منه وخلفته بالمدينة مسلماً وهو فلان بن فلان ، قال جبلة : لا أعود إلّا إن زوجنى عمر ابنته ووَلاّنى العهدَ ، قال الرسول : فضمنت له التزويج ولم أضمن له الخلافة .

---

(١) القَهَارِمَة : جمع قَهرَمان وهو أمين الملك ووكيله الخاص بتدبير دخله وخرجه .

(٢) الحفدة : جمع حافد وهو الخادم .

(٣) إشارة إلى ما روى عنه – ﷺ – « لا يأبى الكرامة إلا حمار » ورد موقوفاً من حديث ابن عمر انظر المقاصد (٤٦٩) والدُرَر برقم ٤٥١ والتمييز ١٩١

(*) إشارة إلى ما ورد فى النهى عن استعمال الذهب .

ثم دعا بموائد طعام فأُحضرت أطباقٌ من فضة وصِحاف من ذهب فيها الطعام ، فقال لى كُل ،فقبضت يدى وقلت : إن رسول الله – ﷺ – نهى عن الأكل فى مثل[1] ذلك ، فقال : نعم – ﷺ – ودعا بقصعة من خَلَنْج[2] فأكلت فيها ، وكان بحضرته جوارٍ يغنين من الشِّعر وبأيديهن العود والأراغل[3]، فقال لى : أتعرف قائل هذا الشعر ؟ قلت : لا ، قال : هذا شعر حَسّان بن ثابت الأنصارى كيف حاله ياترى ، قلت له : قد كف بصره ، قال : فأمر لى بكُسْوة ومال ونُوق موفورة ، ثم قال لى : خذ هذه فإن وجدت حسّانًا حيًّا فسلمها إليه ، وإن وجدته ميّتاً فادفع المالَ لأهله ، وانحر النُّوقَ على قَبْرِه ، وأنشد هذه الأبيات :

تَنصَّرتِ الأشرافُ من عَار لطمةٍ ... وماكان فيها – لو صبرت لها – ضرر !!
تكنّفنى فيها لَجاجٌ – ونخوةٌ ... وبعتُ لها العينَ الصحيحة بالعور
فياليت أُمِّى لم تلدنى ! وليتَنِى ... رجعتُ إلى القولِ الذى قال لى عمر !
وياليتنى أرعى المخاض بقَفْرة ... وكُنْتُ أميراً فى ربيعةَ أومُضَر !

قال الرسول : فأخذت الهدية ورجعت إلى عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – فأخبرته بصورة الأمر ، قال : هلا ضمنت له ذلك ؟! ، فإذا فاء إلى الإسلام وتَأَنَّسَ به قضى الله بحكمه فينا وفيه ، ثم ذكرت له هدية حَسّان فأنفذ عمر إلى حسان فأقبل وقائد يقوده ، فلما دخل حسان قال : ياأمير المؤمنين إنى لأجد ريحَ غسان ، قال : نعم ، هذا رجل قدم علينا من عندهم ، قال : هات يابن أخى ما معك ، فقال الرسول : ومن أعلمك أن معى هدية ؟ قال : يابن أخى إن جَبَلَةَ كريم من عُصْبَةٍ كرام مدحتُهم فى الجاهلية فأعطانى وحلف أن لا يلقى أحدًا يعرفه بمكانى إلَّا سَيَّرَ لى معه هدية ، قال : فدفعت له المال والإبل ، ثم أعادنى عمر إلى القسطنطينية لأضمن لجبلة التزويج والأمر ، فلما قدمتُ القسطنطينية وجدت الناس منصرفين من جنازته فعلمت أن الشقاء قد غلب عليه فى أم الكتاب ! .

---

(١) أرجع إلى ما يُحْظَر استعماله منها فى الأشربة البخارى ك ٢ ب ٤٠ مفتاح كنوز السنة ومسلم ك ١ ح ٢٣ – ٢٧ .

(٢) الخَلَنْج : شجر وهو مُعَرَّب كما جاء فى القاموس .

(٣) الأراغل جمع أرغول .

[عمر بن عبد العزيز والشعراء]

وقال الكلبى : لما أُفْضَتْ الخلافة لعمر بن عبد العزيز – رضى الله عنه – وفدت عليه الشعراء كما كانت تَفِدُ على الخلفاء قبله ، فأقاموا ببابه أيَّامًا فلم يؤذن لهم فى الدخول حتى قدم عليه عَدِىّ بن أرطاة(*)– يعنى على عمر بن عبد العزيز – وكانت له منه مكانة فتعرض له جرير وسأله أن يستأذنَ لهم ، فقال عدى : نعم ، فلما دخل عدى على عمر قال له : ياأمير المؤمنين إن الشعراء ببابك لهم أيامٌ لا يؤذن لهم ، وأقواهم باقية ، وسِهَامُهم مسنونة فقال عمر : ياعدى مالى وللشعراء !

قال : ياأمير المؤمنين إن النبى – ﷺ – مُدح(١) فأعطى وفيه أسوة لكل مسلم ، قال : ومن مدحه ؟ قال : مدحه عباس بن مرداس السلمى فكساه حُلَّةً ، وقال : يابلال اقطع عنى لسانَه ، قال أو تروى قوله ؟، قال : نعم .

قال عمر : قُلْ ، فأنشده هذه الأبيات بصوت رخيم :

رأيتُك ياخيرَ البريـةِ كلِّهـا ... نشَرْتَ كتابًا جاء بالحق مُعْلَما
سَنَنْتَ لنا فيه الهدى بعد جَوْرنا ... عن الحق لما أصبح الحقُّ مظلماً
ونورتَ بالإسلام ما كان مظْلِماً ... وأطفأت بالبرهان جَمْرًا تضَرَّما
فَمنْ مبلغٌ عَنّى النبىَّ مُحَمدًا ... فكل امرىء يُجزىٰ على كُلِّ مائكلّما

(*) فى رواية العقد الفريد : عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود وهو خطيب راوية ناسب شاعر وصحب عُمَر بن عبد العزيز فى خلافته .

(١) وكذلك مدحه كعب بن زهير وخلع عليه بردته وأنشده :

إن الـرسول لنـور يستضاء بـه ... مهنـد مـن سيـوف الله مسلـول

وترجم له ابن حجر فى الجزء الخامس من الإصابة (تحت رقم ٧٤١٦) وذكر قصة إسلام كعب بعد أن كان الرسول – ﷺ – قد أهدر دمه فجاء وأنشده القصيدة ، بانت سعاد وقال ابن حجر ووقعت لنا بعُلُوّ فى جزء إبراهيم بن يزيد الكبير ، وأخرج ابن قانع من طريق الزبير بن بكار عن بعض أهل المدينة عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب قال : ... وذكر قصة إسلامه

أما العباس بن مرداس فقد شهد مع النبى – ﷺ – الفتح وحنينا كما ذكر ابن حجر وهو القائل لما أعطى النبى – ﷺ – الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن من غنائم حنين أكثر مما أعطاه :

أتجعـل نهبـى ونهب العبيـد بـين عيينـة والأقـرع
ومـا كان حصن ولا حـابس يفوقـان مـرادس فى مجمـع !!

أقمت سبيَل الحقِّ بعد أعوجاجه وكان قديمًا وجهُهُ قد تَهَدَّمَا
تعالىٰ عُلوًّا فوق عَرْشِ إلٰهُنَا وكان جلال الله أعلىٰ وأعظماً

قال عمر : صدقت !؛ فمن بالباب منهم ؟! قال عدى : ياأمير المؤمنين بالباب منهم ابن عمك عمر بن أبى ربيعة القرشى فقال عمر : لا قَرّبَ الله قرابته ، ولاحَيّا وجهه أليس هو القائل هذا :

فياليت أنى يوم تدنو مَنِيّتى شَمِمْتُ الذى ما بين عَيْنَيْك والفم
ويااليت سُلَيمَىٰ فى الممات ضَجِيعتى هنالك فى جنة أو جهنم[1]

فليته – عدو الله – تمناها فى الدنيا ، ثم يرجع إلى العمل الصالح والله لا دخل علىَّ .

من بالباب غيره ؟ قال : بالباب جميل بن معمر العذرى ، قال : أليس هو القائل فى قصيدة له :

ألا لَيْتَنَا نحيا جميعًا وإن نَمُتْ يوافى لدى الموتى ضريحى ضريحُها
فما أنا فى طُولِ الحياة براغبٍ إذا قيل قد سوِّى عليها صفيحُها[2]
أظلّ نهارِى لا أراها ويلتقى مع الليل روحى فى المنام وروحُها

اُغْرُبْ[3] عنى به .

فمن بالباب غيره ؟ قال : بالباب كثيّر عزة ، قال : أليس هو القائل فى قصيدة له هذا الكلام :

رُهْبانُ مَدْيَنَ والذين عهدتُهُمْ يَبْكُون من حَذر العذابِ قُعودًا
لو يسمعون كما سمعتُ حديثَها خَرُّوا لعَزّةَ خاشعين سجودًا

عَدِّ[4] عند ذكره ! .

من بالباب غيره ؟ قال : الأَحْوص الأنصارى ، قال : أَبْعَدهُ اللهُ ومَحَقَه ! أليس هو القائل فى قصيدة له وقد أفسد على رَجُلٍ جاريتَه بالمدينة حيث أَبِقَتْ من سيدها :

اللهُ بَيْنى وبَيْن سَيِّدها يفرّعنِّى بِهَا وأتبعُ[5]

---

(١) البيتان فى ديوانه .
(٢) الصفيح جمع صفيحة وهى الحجارة العراض .
(٣) اذهب من أمامى حتى لا أراك كما تغرب الشمس .
(٤) عَدّ عن ذكره : اضرب صفحاً عنه وتجاهله .
(٥) البيت فى الشعر والشعراء لابن قتيبة .

لا يدخل علىّ .

من بالباب غيره ؟ قال : همام بن غالب الفرزدق ، قال : أليس هو القائل فى قصيدة له يفتخر بالزنا فى هذين البيتين :

هما دَلَّتانى من ثمانين قامة ... كما انْقَضَ أَتْمُ الريش كاسِرُه[1]

فلما استوت رجلاى فى الأرض قالتا ... أَحَيٌّ يُرَجّى أم قتيل نُحاذِره[2]؟

قال : لايدخل علىّ ، وهذه قصيدة مشهورة للفرزدق ذكر فيها أشياء أعرضت عن ذكرها .

قال عمر : من بالباب غيره ، قال : الأخطل التّغلبى ، قال : هو الكافر إذ قال فى شعره هذه الأبيات القبيحة :

فلستُ بصائمٍ رمضانَ عُمْرِى ... ولستُ بآكلٍ لحمَ الأضاحِى

ولستُ بقائمٍ كالعَيْرِ يدعو ... قُبَيْلَ الصُّبحِ حَىَّ عَلَى الفَلاح

ولكنى سأشربها شَمُولا ... وأسجد عند منبَلَجِ الصَّباحَ[3]

والله لا وطىء لى بساطاً أبداً وهو كافر !!.

من بالباب غيره ؟ قال : جرير بن الخَطَفِى ، قال : أليس هو القائل فى قصيدة له :

لولا مراقبةُ العُيونِ أرِيننا ... مُقَلَ المها وسَوَالِفَ الآرامِ

طرقتك صائدةُ القُلوبِ وليس ذا ... حِين الزِّيارة فارجعى بسلامِ[4]

فإن كان ولابد فأذن لجرير ، فخرج عدى فأذن لجرير ، فقال : ادخل أباحرزة !، فدخل جرير وهو يقول هذه الأبيات الحسان بصوت حسن :

إن الذى بعث النبىَّ محمدًا ... جعل الخلافةَ فى الإمامِ العادلِ

وسعَ الخلائقَ عدلُه ووفاؤه ... حتى ارْعَوى وأقام مَيْلَ المائل

والله أنزل فى القرَانِ فريضة ... لابن السبيل وللفقير العائل

إنى لأرجو منك خيرًا عاجلاً ... والنفس مولَعَةٌ بحب العاجلِ[5]

---

(١) قال فى اللسان : كسر الطائر يكسر : ضم جناحيه حتى ينقض يريد الوقوع والكاسر العُقاب ، ويقال : بازٍ كاسر .

(٢) البيتان للفرزدق فى ديوانه ص ١٨٩ . والبيت الثانى فى الديوان مقدم على الأول وبينهما بيت .

(٣) الأبيات فى ديوانه قالها عندما طلب منه عبد الملك بن مروان أن يسلم .

(٤) البيتان فى ديوانه (ص ٥٥١ ؛ ٥٥٢) . والآرام : الظباء .

(٥) الأبيات عدا الثانى فى ديوان جرير (ص ٤١٥) فى مدح عمر بن عبد العزيز .

قال : فلما حضر بين يديه قال : ياجرير ؛ اتق اللهَ ولا تَقُلْ إلا حَقّا !، فقال جرير هذه الأبيات :

كم باليمامة من شعثاءَ أرْمَلـةٍ ومن يتيم ضعيفِ الصوتِ والنظرِ
مِمّن يَعُدُّك تكْفِى فَقْدَ وَالِدِه كالفَرْخِ فى العُشِّ لم يَدْرُجْ ولَمْ يَطِرِ
إنا لَنَرْجُو إذا ما الغيثُ أخلَفَنَا من الخليفة ما نرجو من المطرِ[1]

وهذه قصيدة طويلة اختصرتها ، فقال : والله ياجرير ما يملك عمر سوى مائة درهم ، ياغلام ادفعها له ، فدفع له حَلْىَ سيفه ، فخرج جرير إلى الشعراء فقالوا له : ما وراءك ؟! قال : رجل يُعطِى الفقراءَ وَيمنَعُ الشعَراء وأنا عنه راضٍ !! .

[وفود سودة على معاوية]

وقال الشعبى : قدمت سودة بنت عمارة على معاوية ، فلما دخلت عليه وسلمت قال لها : كيف أنت يابنت عمارة ؟ قالت : بخير ياأمير المؤمنين !، قال : أنسيت قولك لأخيك يوم صِفين ؟ قالت : وماهو ياأمير المؤمنين قال :

شَمِّرْ كفِعْلِ أبيك يابن عمارة يَوْمَ الطِّعَانِ ومُلْتَقَى الأَقْـرَان
وانصُر عليًّا والحُسَيْن ورَهْطَه واقصد لهند[2] وابنِها بِهَـوانِ

قالت : ياأمير المؤمنين ما مثلى من رغب عن حق ، واعتذر بباطل ، قد كان منى ، قال : فما حملك على مثل هذا ؟ قالت : حب علىّ – رضى الله عنه – واتباع الحق ، قال : فما أرى عليكِ منْ أثر علَىٍّ شيئاً ، قالت : بلى والله كانت آثاره جميلة ، وعدله شاملاً ، فبالله ياأمير المؤمنين إلا صرفت عنك تَذْكَارَ مانُسى !! .

قال : هَيهات مِثلُ مَقامِ أخيك يُنْسَى ، قالت : صدقت ما كان أخى خَفِىَّ المقام ولا ذميمَ المكان ، كان والله كما قالت الخنساء :

وإن صَخْرًا لتأتَمُّ الهُداةُ بـه كأنـه علـم[3] فى رأسِه نـار

---

(١٢) الأبيات فى ديوان جرير (ص ٢٧٤ ، ٢٧٥) والأخير مقدم على سابقيه فى الديوان .

(١) هند بنت عتبة ، أما ابنها فهو معاوية .

(٢) البيت فى ديوان الخنساء وقد قالته فى أخيها صخر وهو يقولون فى كل مشهور معلوم « أشهر من نار على علم » والعلم : الجبل .

ثم قالت : ياأمير المؤمنين دعنى من مثل هذا ، قال : قد فعلت ، قولى حاجتك ، قالت : ياأمير المؤمنين إنك أصبحت للناس سَيِّدا ، ولأمرهم مُقَلّداً ، والله سائلك عمَّا فرضه عليك من حَقّنا ، وأنت مُقَدِّم مَن يَبُوءُ بِعِزّك ، ويبطش بسلطانك فيحصدنا حَصادَ السُّنبل ، ويدوسنا دوسَ البقرة ! .

قال : من هو ؟ قالت : ابن أرطاة[1] عدى قدم إلى أرضنا فقتل رجالى ، وأخذ مالى ، ولولا الطاعة لك لكان فينا المَنعةُ له ، فإمّا عزلتَه منّا شكرناك وإن لم تعزله عَرَفْناك ، قال لها : أتهددينى بقومك ؟ والله لقد هممت أن أردك إليه على كور قَتَب[2] فيُنَفِّذُ فيك حُكْمَه ، فقالت عند ذلك :

صَلّى الإلٰهُ على رُوحٍ تَضَمَّنَهُ قَبْرٌ فأصبحَ فيه العدلُ مدفونا
قد حَالَفَ الحَقّ لا يَبْغِى به بدلاً فصارَ بالحَقّ والإيمانِ مَقْرُونا

قال معاوية : من هو ؟ قالت : علىّ بن أبى طالب ، قال : ما الذى جرى لك معه ؟ قالت : أتيته فى رجلٍ ولّاه الصدقات فكان بيننا وبينه ما بين الغث والسمين ، فوجدته قائمًا يصلى ، فلما أحسَّ بى سَلّم من صلاته والتفت إلىّ برحمة ورفق ورأفة ، وقال : ألك حاجة ؟ فأخبرته الخبر ، فبكى ورفع يديه إلى السماء وقال : اللهم أنت الشاهد علىّ وعليهم إنى لم آمرهم بظلم خلقك ولا بترك حقك ، ثم أخذ قطعة من جلد وكتب فيها :

بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿ **قَدْ جَاءَتكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَاتَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ** ﴾ [الأعراف : ٨٥] ﴿ **وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ** ﴾ [هود : ٨٥ - ٨٦] إذا قرأت كتابى هذا فاحفظ مافى يديك من عملك حتى يرد عليك من يقبضه منك والسلام ؛ فصرفه من عمله وولّى علينا غيره ، فقال لها معاوية : اكتبوا لها بالعدل والإنصاف ، فقالت : لى خاصة أو لقومى عامة ؟ فقال : لك خاصة ، قالت : إن هذا لَلُؤْم عظيم ، قال معاوية : هيهات اكتبوا لها ولقومها[3].

---

(١) هو بُسْر بن أرطاة قائد فتاك من الجبارين ولد بمكة قبل الهجرة وأسلم صغيرا روى عن النبى - ﷺ - حديثين فى مسند أحمد . ثم كان من كبار رجال معاوية بن أبى سفيان وشهد فتح مصر .

(٢) القتب : الرَّحل الصغير على قدر سَنام البعير .

(٣) انظر القصة فى العقد الفريد المجلد الثانى كتاب الجُمانة فى الوفود وطبائع النساء بتحقيقى .

[وفود بكارة على معاوية]

وحدثنا محمد بن عبد الله الخزاعى ، قال : دخلت بكارة الخزاعية على معاوية ، وكانت امرأة قد كبرت ، وعشى بصرها[1]، وضعفت قوتها بين جاريتين لها ، فسلمت وجلست فرد عليها معاوية السلام ، وقال : كيف أنت ياخالة ؟ قالت : بخير ياأمير المؤمنين ، قال : غيَّرك الدهر ، قالت : هو كذا ذو غِيَر ؛ من عاش كَبِر ومَنْ مَات قُبِر ، فقال عمرو بن العاص : هى والله القائلة ياأمير المؤمنين هذا الكلام :

يازيد دونك فاستشر من دارنا سيفًا حُسامًا فى التراب دَفينا
قد كنتُ أَذْخرُه لِيَومٍ كريهة فاليومَ أَبْرَزَهُ الزمانُ مَصُونَا

فقال مروان بن الحكم : وهى والله القائلة ياأمير المؤمنين :

أترى ابن هندٍ للخلافة مالكًا هيهات ذاك – وإن أراد – بعيدُ
مَنَّتْكَ نَفْسُك فى الخلاءِ ضَلَالَةً أغواك عمرو للشَّقَا وسَعِيدُ

فقال سعيد بن العاص : وهى القائلة ياأمير المؤمنين :

قد كُنْتُ أَرْجو أن أموتَ ولا أرَى فوقَ المَنابِرِ مِنْ أُمَيةَ خاطِباً
فاللهُ أخرَّ مدتى فتطاولت حتى رأيت من الزمان عجائباً
فى كل يوم للزمان خطيبهم بين الجميع لآل أحمد عائبا !

قالت : يامعاوية إن هذه الجماعة جماعة حسنة ، وأنا والله القائلة ذلك جميعه وما خفى عنك أكثر ، فضحك معاوية وكل من فى المجلس ، ثم قال لها معاوية : ليس يمنعنا ذلك من أداء حقك وقضاء حوائجك ، قالت : أمّا فى هذا المجلس فلا ، وانصرفت .

[وفود عكرشة على معاوية]

حدثنا أحمد بن سليم ، قال : دخلت عكرشة بنت الأطرش بن رواحة على معاوية وهى متوكئة على عكاز لها فسلمت عليه بالخلافة ، فقال لها معاوية : لا إله إلَّا الله ، الآن صرت عِنْدَكِ أميرَ المؤمنين وتهنينى اليوم بالخلافة !!، قالت : نعم إذْ « علىٌّ حَىّ – رضى الله عنه –» قال : ألست

(١) عشى بصرها : ضعف وأصابها مرض العَشى فى عينها .

المتقلدة حمائل السيف يوم صِفّين وأنت بين الصفوف تقولين كلامًا حفظته منك ، قالت : ماهو ؟ قال : أيها الناس عليكم أنفسَكم لا يَضُرّكُم من ضَل إذا اهتديتم ، إن الجنة لا يرحل من قطنها ، ولا يهرم من سكنها ، ولا يحزن قاطنها ، ولا يموت مَن دخلها فاشتروها بدار لا يدوم نعيمها ، ولا تنقضى همومها ، وكونوا قوما مستبصرين فى دينهم ، مستظهرين بالصبر على طلب حقوقهم ، ألا إن معاوية قدم عليكم بقوم غُلف القلوب لا يفقهون الإيمان ولا يدرون الحكمة ، دعاهم بالدنيا فأجابوه ، واستدعاهم إلى الباطل فلبوه ، فاللهَ اللهَ عباد الله ! إياكم والفشلَ ؛ فإنه يَنْقُضُ عرَى الإسلام ، ويُطفِئُ نورَ الحق . هذه بدرٌ الصُّغرى ؛ والعقبة الأخرى .

فكأنى أراك متوكئة على عصاك هذه وأنت تحضين الناس على القتال فإن كدت لتقتلين أهل الشام ، لولا قدر الله وكان أمر الله قدرًا مقدورًا ، فما حملك على ذلك ياعكرشة ؟ قالت : ﴿**يٰأيها ٱلَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَسْئَلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ**﴾ [المائدة : ١٠١] ، وإن العاقل إذا كره قولاً لم يقصد إعادته ، ثم قال :

اذكرى حاجتك التى جئتِ فيها ، قالت : كانت الصدقات تؤخذ من أغنيائنا فتُرَدّ على فقرائِنا ، وقد فقدنا ذلك فلا يُجْبَر لنا كسير ، ولا ينعش منا فقير ، فإن كان ذلك برأيك فانتبه من هذه الغَفْلة وراجع التوبة ! .

وإن كان بغير رأيك فما مثلك يستعمل الظَلَمة ويستعين بالخَونة ، فقال معاوية : اكتبوا لها : تصرف صدقة أغنيائهم على فقرائهم فلا حاجة لنا بها .

[قصة دَارِمية الحجونية مع معاوية]

وأخبرنا سهل التيمى ، قال : حج معاوية فسأل عن امرأة من بنى كنانة كانت مقيمة بأرض الحجاز يُقالُ لها « دَارِمية الحجونية » ، فأخبروه بسلامتها وأنها حية ترزق ، فأمر بها ، فلما حضرت – وكانت سوداء – قال لها : كيف أنت يابنت حام[1]؟ قالت : لست بابنة حام أنا امرأة من كِنانة ، قال : أتدرين لم أرسلت إليك ؟ وفيم استدعيتك ؟ قالت : لا يعلم الغيب إلّا الله تعالى ، قال : أردت أن أسألك لم أحببت علىّ بن أبى طالب

(١) هو حام بن نوح وينسب إليه الجنس الأسود كما أن الأبيض ينسب إلى أخيه سام .

– رضى الله عنه – وأبغضتِنى ، ووالیته وعادیتنى ؟ قالت : أو تعفینى من ذلك ؟! .

قال : لابُدَّ أن تقولى ، قالت : أحببت علیًّا على عدله فى الرعیة وقِسْمَتِه بالسَّویة ، وأبغضتك على قتالك لمن هو أولى بالخلافة منك ؛ وطلبك ما لیس لك بحق ، ووالیت علیًّا على ما عقد له رسول الله – ﷺ – من الألویة ، وعلى حبه للمساكین ، وإعظامه لأهل الدین ، وعادیتك على سفك الدماء ، وجوْرك فى القضاء ، وحكمك بالهوى .

قال لها معاویة : هل رأیت علیًّا ؟ قالت : نعم ، قال : فكیف رأیته ؟ قالت : رأیته ما فتنه الملك الذى فتنك ، ولم تشغله النعمة التى شغلتك .

قال : فهل سمعتِ من كلامه شیئاً؟ قالت : نعم ، كان كلامه یجلو القلوب من العمى كما یجلو الزیت الصدأ .

قال : فهل لك من حاجة ؟ قالت : نعم ، أعطِنى مائة ناقة حمراء فیها فحولها ورعیانُها ، قال : فما تصنعین بها ؟ قالت : أغذو بلبنها الصِّغَار ، وأستحیى بها الكبار ، وأكتسب بها المكارم ، وأُصْلِحُ بها بین العشائر .

قال : فإذا دفعتها لك أكون عندك فى منزلة علىّ ؟ قالت : لا والله ، فقال معاویة ممتثلاً :

إذا لَم أَعُدْ بالحلم مِنّى عَلَیْكُمُ فمَنْذَا الّذِى بَعْدى یُؤَمِّلُ بالحلمِ

ثم قال لها : أما والله لو كان على حیًّا ما أعطاك منها شیئاً . قالت والله ولا وبرة[1] لأنها من مال المسلمین ، فقال لها : خذیها وانصرفى .

[وفود أم البراء على معاویة]

واستأذنت أم البراء ابنة صفوان على معاویة فأذن لها معاویة ، فدخلت علیه وسلمت وكان علیها ثلاثة دروع وتسحبها خلفها ، ثم جلست ، فقال لها : كیف أنت یاابنة صفوان ؟ قالت : كسلت بعد نشاط ، وضعفت بعد قوة ، قال : شتان بین لسانك الیوم وبین قولك هذا الكلام :

یازیدُ دونَكَ صارما ذَا رَوْنَقٍ عَضْب المهزّةِ لیس بالخـوّارِ

(١) الوبرة : واحدة الوبر وهو صوف الإبل والمراد : أنه ما كان یسمح بأقل القلیل من مال المسلمین لغیر المستحقین .

أَسْرِجْ جوادك مسرعًا ومُشَمِّرًا للحرب غير مُعَوَّد لفرارِ
أجب الإمام وذُبَّ تحتَ لوائِه والْـقَ العَدُوَّ بصارم بتّارِ[1]
ياليتنى أصبحتُ غيرَ قَعيدةٍ فأذبّ عنه عساكر، الفُجّارِ!

فقالت : قد كان ذلك ، ولكن عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه ، قال : هيهات والله لو عاد لعدت .

قالت : أجل والله إنى على بينة من ربى وهُدىً من أمرى .

فقال له بعض جلسائه : وهى القائلة ياأمير المؤمنين ترثى عليًّا عند موته بهذا الكلام :

ياللرِّجالِ لِعظَمِ هولِ مُصيبَةٍ حَلّت فليس مُصابها بالحائلِ
الشمسُ كَاسِفَةٌ لِفَقْدِ إمامِنا خيرِ الخلائق والإمامِ العَادلِ

قال لها معاوية : قاتلكِ اللهُ فما أبقيتِ قولاً لقائل ، اذكرى حاجتَك ، قالت : أما الآن فلا ، وقامت فعثرت ، فقالت : تَعِسَ باغض علىّ ، ثم خرجت ، فبعث لها بجائزة سَنية فقَبِلَتْها .

[وفود ليلى الأخيلية على الحجاج]

ووفدت ليلى الأخيلية على الحجاج ، فلما دخلت عليه قال لها : أنشدينا من شِعرك فأنشدت ما اختارت وهو يَستزيدها ، فلما قَضت إنْشَادَها ، قال مُحَصّن الفقعسى – وكان جالسًا عند الحجاج – من هذا الذى كانت هذه المرأة تمدحه بهذه الأبيات وأظنها كاذبة ، فنظرت إليه وقالت : أيها الأمير إن هذا المعترض لو رأى توبة الذى مدحته لَسَرَّه ألَّا تكون عنده فى بيته عذراء إلَّا وهى منه حامل ، فقال الحجاج : هذا وأبيك للجواب الذى كنتَ عنه غنيًا ، ثم قال لها : ياليلى سلى حاجتك ، فأنشدت هذين البيتين :

إذا ورد الحَجّاجُ أرضًا مريضةً تَتَبّـعَ أَقْصَى دائِهـا فشَفَاهَـا
شفاها من الداء العُضال الذى بها غـلامٌ إذا هَـزّ القَنَـاةَ ثَنَاهـا

فقال لها : لا تقولى « غلام » قولى : « هُمَامٌ » ، ثم قال لها : قد أمرنا لك بعشرين أترضين ؟ فقالت : زد فمثلك من زاد ، قال : أربعين ، قالت : زد فمثلك من زاد ، قال : مائة واعلمى أنها غنم ، قالت : معاذ الله أنت

(١) ذبَّ : دفع الأعداء ، وقاتل دونه .

أجود جودًا وأعظم مجدًا ، وأورى زندًا [من أن تجعلها غنمًا] ، قال : فماهى ويحك ؟ قالت : أُدْمًا ؛ فجعل لها إبلاً إناثًا ؛ والأُدْمُ هى الإبل الإناث البيض وهى أكرمها وأجلها ؛ قالت : ورعاتها ، قال : ورعاتها[1].

[وفود أسماء على النبىِّ - ﷺ -]

ووفدت أسماء بنت يزيد على النبىِّ - ﷺ - فقالت : بأبى أنت وأمى يارسولَ الله - ﷺ - إنه ليس فى شرق البلاد وغربها امرأة إلَّا وهى مثل رأيى أن الله بعثك إلى الرجال والنساء فآمنا بك وبالذى أرسلك ، فإنا معاشر النساء محصورات مقصورات ، قواعد بيوتكم ، ومواضع شهواتكم ، وحَامِلَات أولادكم ، وأنتم معاشر الرجال فُضِّلْتم علينا بالجمعة ، والجماعات ، وعيادة المريض ، وتشييع الجنائز ، والحج ، ثم أفضل من ذلك الجهاد فى سبيل الله ، وإنكم إذا خرجتم حُجاجًا ومجاهدين ، وتُجارا ومسافرين حفظنا لكم أموالكم ، وربّينا لكم أولادكم ، أفنشارككم فى الأجر يارسول الله ؟ فالتفت النبى - ﷺ - بوجهه إلى أصحابه وقال : « **هل سمعتم مقالة امرأة أحسنَ من مسألتها عن أمر دينها من هذه المرأة ؟!** » فقالوا : يارسول الله ، ما ظَنَنّا أن امرأةً تهدى فى دينها إلى مثل مقالتها ، فقال النبى - ﷺ - : « **انْصَرِفى أيتها المرأة وأعلِمِى مَنْ خلَفكِ من النساء أن حُسْنَ تَبَعُّل إحداكن لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته يعدل ذلك إن شاء الله تعالى** » ، فانصرفت وهى تهلل وتكبر استبشارًا[2].

[وفود إبراهيم بن محمد على عبد الملك بن مروان]

لمَّا وَلِىَ الحَجّاجُ الحرمين حَظِىَ عنده إبراهيم بن محمد بن طلحة ، فلما أراد الحجاج الرجوعَ إلى الشام إلى عبد الملك بن مَرْوان أوفد معه إبراهيم

(١) تجد هذه القصة مطولة (فى الأمالى ١/٨٧ - ٨٩) .

(٢) أخرجه البزار برقم (١٤٧٤ - كشف الأستار) من حديث ابن عباس مختصراً وهو حديث ضعيف .

وقال الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (٤/٣٠٥) : وفيه رشدين بن كريب وهو ضعيف .

ابن محمد يريد له خيرًا عند عبد الملك لم يبدأ بشيء قبل شكر إبراهيم ابن محمد وقال : أمير المؤمنين أتيتك برجل الحجاز فى الشرف والأبوة والفضل والمروءة مع ماهو عليه من حسن الخلق والطاعة وجميل المناصحة ، والله لم يكن فى الحجاز له نظير ، فبالله ياأمير المؤمنين إلا فعلت معه من الخير ماهو مستحقه ، فقال عبد الملك : والله ياأبا محمد لقد ذكرتَنا بحق واجب ، ائذن له فى الدخول ، فأذنوا لإبراهيم فى الدخول !

فلما دخل على عبد الملك أمر بجلوسه فى صدر المجلس ، ثم قال له : إن أبا محمد الحجاجَ ذكرنا منك ما نعرفه من كمال مروءتك وحسن نصيحتك فلا تدع فى صدر المجلس حاجة إلَّا ذكرتها وأعلمتنا بها حتى نقضيَها لك ولا تُضَيِّع شكر أبى محمد الحجاج فيك .

فقال إبراهيم : إن الحاجة التى أبغى بها وجه الله تعالى ، نصيحة أمير المؤمنين ، والتقرب إلى الله تعالى وإلى النبى – ﷺ – فى القيامة فأنا أبدأ بها ياأمير المؤمنين ، قال : قل .

قال : لن أقولها وبينى وبينك ثالث ولا صديقك الحجاج .

قال : قم ياحجاج ، فقام الحجاج خَجِلاً وهو لا يعرف أين يطأ !، ثم قال : هات نصيحتك .

قال إبراهيم : إنك ياأمير المؤمنين ولّيتَ الحجاجَ الحرمين وفيهم من يُعْرف من أبناءِ المهاجرين والأنصار وصحابةِ رسولِ الله – ﷺ – مع ما تعلمه من ظلمه وعسْفِه ، وبعده عن الحق ، وقُرْبه من الباطل ، يسومُهُم الخسف ويطؤهم بطَغَام[1] أهل الشام ، فليت شعرى أى جواب أعددته لرسول الله – ﷺ – إذا سألك فى عرصات القيامة[2] عن ذلك ، فبالله ياأمير المؤمنين إلا عزلته وادخرتها قربة إلى الله عزَّ وجلَّ ، فقال عبد الملك : لقد جاء ظن الحجاج بغير أهله قم ، فقال إبراهيم : قمت وما أعرف طريقاً .

قال : وقد خرجتُ من المجلس واسوَدّتِ الأرضُ فى وجهى ، فتبعنى حاجبه ، وقبض على زندى وأجلسنى فى الدهليز ، ثم دعا بالحجاج فدخل فمكث طويلاً عند أمير المؤمنين وما شككت أنهما يتناجيان فى قتلى ، ثم دعانى فقمت ودخلت ، فوافانى الحجاج وكان خارجًا فعانقنى وقال : جزاك الله عن

(١) الطَغام : أراذل الناس .

(٢) العرصات : جمع عرصة ، وهى الساحة

النصيحة خيراً ، والله لئن عشت لأرفعن قدرك وتركنى ، فد خلت وأنا أقول يهزأ بى وهو معذور ، فدخلت على عبد الملك بن مروان ، فأجلسنى مجلسى الأول ثم قال : علمتُ صدقَك ونُصَحك وقد عزلتُه عن الحرمين ، ووليتُه العراق وأفهمته أنك تطلب له الزيادةَ فى الكَمال ، وهو يظن أنك السبب فى توليته العراق ، وقد تهللَ وجْهُه بذلك سرورًا ، فَسِرْ معه أينما توجه يوليك خيرًا ولا تقطع عنا نصيحتك .

[وفود أبى الربيع على أبى جعفر المنصور]

ووفد أبو الربيع على أبى جعفر المنصور - وكان صديقاً له قبل أن تفضى إليه الخلافة وكان يكتب معه الحديث - فلما دخل عليه قال : ياأبا الربيع ما فعل عيالك ؟ قال : كما علمت ياأمير المؤمنين ، فدفع له ألف دينار وقال : خذ هذه ولا تأتنا بعد يومك هذا ! .

وكان المنصور يشتهى ألا يعود إليه بشىء فى نفسه ، فأخذها الربيع وانصرف ، فلما كان رأس الحوَل[1] جاءه فدخل عليه وسلم ، فلما رآه المنصور قال : ألم أقل لك لا تأتنا ؟ قال : ياأمير المؤمنين إنى لم آتك سائلاً وإنما جئتك مُسَلِّمًا ، فأعطاه ألف دينار ، فقال : خذها ولا تأتنا بعد يومك هذا سائلاً ولا مُسَلمًا ، فأخذها وانصرف .

فلما كان فى رأسِ الحول أتاه ، فقال له المنصور : ألم أقل لك لا تأتنا ، فقال : لم آتك سائلاً ولا مُسَلِّمًا إنما أتيتك مُسْتَمْلِيًا[2] دعاءً كنت أسمع أمير المؤمنين يدعو به عقيب الصلوات ، فدفع له ألف دينار ، وكتب له الدعاء ، وقال : لا تأتِنَا سائلاً ولا مُسَلِّماً ولا مُستمليًا ، ولا تَدْعُ بهذا الدعاء فإنه غير مستجاب !

قال : ولمَ ياأمير المؤمنين ؟ قال : لأنى سألت الله تعالى أن يُريحنى منك ثلاثَ سنين ولم يستجب وواظبت عليه مراراً وأنت على حالك !!.

---

(١) رأس الحول : نهاية العام .

(٢) مستملياً : طالبا منك أن تُمْلِى على ما حفظته .